تطوُّر دَلالَتَي "الجارية" و"الحجّ" عند ابن فارس

أ. عمار قلالة
جامعة محمد خيضر –بسكرة-

الملخص:

حَكَمَ اللغوي أحمد بن فارس بتطوّرٍ قديمٍ لدلالتي "الجَارِيَة" و"الحَجّ" من غير أن يورد برهانا على ذلك. وهذا المقال تحقيق في صحّة هذين الحُكْمَين من خلال مرجعين اثنين أحدهما: الشواهد الفصيحة الصحيحة والثاني: أقوال العلماء الأثبات في شأن تينك اللفظتين فالشواهد وحدها لا تكفي للجزم؛ لقلّة ما بلغنا منها من الأزمن المواضي. وأقوالُ العلماء وحدها غير كافية لميز الضعيف من الصحيح؛ لأنهم لا يصرّحون غالبا بمستندهم في إطلاق تلك الأحكام. لكن اتفاق أكثرهم على قول ومجيء الشواهد مصدَّقة له يجعله راجحا مقبولا إلى أن يثبتَ خلافُه.

Abstract:

"Ibn Faris" argue that the meanings of the words "El Jariya" (the maid). and "El Hadj" (The Pilgrimage) has been changed since ancient times. but he never gave proof of that.

The objective of this article is to confirm Ibn Faris's opinion about these words through two references. the first are the texts that reference to them. the second is the opinion of the scholars; considering the texts alone is not enough on the account that there are few of them. and the opinion of the scholars is not enough as well because they do not provide any proof. but if the opinions matched the texts that could be considered as a valid reference.

1- تطوُّر دلالة "الجَارِية":

قال ابن فارس (ت395هـ): «(جري) الجيم والراء والياء أصل واحد وهو انسياح الشيء يقال: جرى الماء يجري جريةً وجريا وجريانا (...) فأما السفينة فهي الجارية وكذلك الشمس وهو القياس والجارية من النساء من ذلك أيضا؛ لأنها تستجرى في الخدمة»[1].

1-1- تفسير القول:

جَعَل ابن فارس "انسياح الشيء" أصلا عاما يتناول جميع ما تفرّع عن هذه المادة وأدخل في جملة ما يُنسب إليه فِعْل الجري الماءَ والسفينة والشمس والشابة وسمَّى الثلاثة الآخِرة جواري. وما ذكر في "مجمل اللغة" من الجواري الثلاث إلا الأخيرة[2]؛ كأنه رأى أنَّ ذِكر الدلالة الأشهر يكفيه فيه؛ إذ قد بناه على الإجمال والاختصار[3].

ونَسَب الخليل (ت170هـ) "الجري" إلى الخيل والرياح أيضا[4] وذَكَر الأزهريُّ (ت370هـ) من الجواري غيرَ ما تقدَّم: عَين كل حيوان والنعمة من الله على عباده[5]. ولم يبيّن ابن فارس أخُصَّ "الجري" في الزمان الأوَّل بشيء ثم استعير لغيره توسّعا أم وضع -أوَّل ما وضع- عاما أما نشوان الحميري (ت573هـ) فذهب إلى أن "الجري" في الماء أصيل وهو في غيره مستعار منه إذ قال: «جَرَى الماء جِريَة وجَريا وجَرَيانا وجرى الفرس وغيره جَريًا وهو من الأوّل»[6].

وأما تقديم ابن فارس "الماء" دون سواه واصطفاؤه إياه لبيان تصاريف الفعل "جرى" فالصحيح أنه إنما قدّمه لشهرته فقط ولا يلزم من الشهرة القِدَم. وذَكر الزمخشري (ت538هـ) الشمس فالريح فالخيل وأخَّر الشابة[7] وابتدأ الفيوميُّ (ت770هـ) بالفرس ونحوه وثنَّى بالماء وثلَّث بالسفينة وربَّع بالأَمَة[8] وهذا الاختلاف في التقديم والتأخير مردّه إلى تباين الأعصار أو إلى تقارب مقدار الاشتهار.

والفعل "جرى" من الأفعال التي تشارك العربيةَ فيه لغات سامية أخرى هي الآرامية والسريانية والآشورية وهو في هذه اللغات ذو دلالة "هاجم" أو "هجم"[9] وفي العربية

التي بلغتنا «اندفع في السير»[10] وهي قريبة من الأخرى؛ لذلك عدَّها صاحب "معجم مفردات المشترك السامي" من المشتركات الساميَّة فكأنه أراد أن دلالتها قد تطورت إلى ما هي عليه.

وفحوى قوله أن "هاجم" مختصّ بالإنسان في الحرب وربما بالسَّبُع أيضا إذ يصيد وأيًّا كان فالجَرْيُ -على هذا- ليس أصيلا في الماء ولا الشمس ولا الخيل ولا الريح. وقد أومأ ابن فارس إلى رجوع السفينة والشمس إلى الأصل المقرر بقوله: (وهو القياس) وهي عبارة قد يستعملها إذا كان ملمح الأصل في الفرع قريبا ويردفها بالتعليل غالبا[11].

وتأخيره للجارية الشابة مع اشتهارها راجع فيما يبدو إلى خفاء ملمح الأصل فيها بسبب تطور دلالتها الأولى؛ لذلك احتاج إلى تعليل تسميتها دون اللفظين الأوَّلين وما كان ليفعل لولا أنها انسلخت من الوصفية وانسلكت في الاسمية فهي صفة غالبة في المسمَّيات الثلاثة خاصة وهي في "الشابة" أغلب وقد وجدنا الخليل وابن دريد (ت321هـ) والجوهري (ت393هـ) أهملوا تفسيرها إذ ذكروها وفسّر ابن فارس الجاريتين الأوليين بالشمس والسفينة ولم يذكر للجارية الشابة تفسيرا.

لكن شهرة الجارية الشابة وظهور ملمح الأصل في الجاريتين الشمس والسفينة لم يغنيا ابن سيدة (ت458هـ) عن تفسير الأولى وتعليل الأخريين حيث قال: «والجارية: الشمس سميت بذلك لجَرْيها من القطر إلى القطر (...) وجرت السفينة جَرْيا: كذلك والجاريةُ: السفينة؛ صفة غالبة (...) والجارية: الفتية من النساء»[12].

وقال الجوهري: «ومعنى قولنا: غالبة أنها غلبت على الموصوف حتى صار يُعرف بها كما يعرف باسمه»[13]. ومن الصفات الغالبة: الأرقط (النمر) والأشعث (الوتِد) والفاجع (الغراب) والحاجب (البوّاب) والحاقنة (المعدة) والآخرة (دار البقاء)[14].

وتعليل ابن فارس تسمية الشابة بالجارية كان بقوله: (لأنها تستجرى في الخدمة) كذلك قال الزمخشري مثل قوله[15] والفيومي أيضا[16]. وبيانه أنَّ أهلها يأمرونها بالمسارعة في خدمتهم والمسارعة من دواعي الجري.

فالظاهر أن أصل "الجارية" وصف عام يتناول كل ما يصحُّ منها فِعْلُ الجَرْي لكنها شاعت في بعض أفرادها كالشابة وكانت تقترن بها كثيرا في الاستعمال حتى غلبت عليها وصارت تقوم مقامها وتغني غناءها وذلك باقتراب ملمح الذات وابتعاد ملمح الصفة فإذا أطلق لفظ "جارية" تبادرت إلى الذهن صورة شابة منفكة عن ملمح الجري فلم يكن بينهما فرق في الإفادة. من أجل ذلك عددنا اختصاص دلالة "الجارية" ببعض أفرادها تطورا دلاليا بالضيق وهذه عبارته الرياضية.

- ✓ الدلالة القديمة: الجارية = كل ما تجري
- ✓ الدلالة الجديدة: الجارية = الشابة والسفينة والشمس

وقد أرجع ستيفن أولمان (Stephen Ullmann) أشباه هذا النوع من التطور الدلالي إلى أسباب لغوية ويقصد بها اقتران لفظين في الاستعمال تكرارا حتى يصيرا عبارةً ذات دلالة معلومة تربط بين لفظيها علاقة وثقى ثم قيام أحدهما مقام العبارة كلها[17]. وقال أيضا: «وقد يؤدي وقوع الكلمتين معا جنبا إلى جنب في عبارة تقليدية كثيرة الورود إلى نوع من الاختصار والإيجاز بحيث تقوم إحدى الكلمتين مقام العبارة كلها»[18].

والصحيح أنه لا تدل واحدة منهما على العبارة كلها إلا في بداية فكاكها عن قرينتها وأما بعد ذلك فلا تدل إلا كما كانت تدل عليه قرينتها المهملة؛ أي أن لفظة "الجارية" في بدايات استغنائهم عن لفظة "الشابة" كانت تعني "الشابة الجارية" أي أغنت غناء التركيب كله وبعد دهر صارت تعني "الشابة" فقط جارية كانت أو غير جارية.

2-1- الشواهد:

نورد ههنا بعض ما وجدنا فيه مادة "جري" من المصادر المعتبرة:

من القرآن العظيم:

لم نجد في كتاب الله ذِكْرًا للجارية بدلالة الشابة وما وجدنا هذا بعضُه:

1- الماء:

قال تعالى جدُّه: ﴿تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة من 100]

وقال: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية 12]

2- الشمس:

قال سبحانه: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [يس من 38]

وقال: ﴿الْجَوَارِ الْكُنَّسِ﴾ [التكوير 16]

3- الريح:

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ [ص من 36]

وقال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات 3]

4- السفينة:

قال جل وعز: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ [البقرة من 164]

وقال: ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة من 11]

من الحديث الشريف:

أكثر ما وجدنا في الأحاديث "الجاريةَ" بدلالة الشابة ولكنها أتت بدلالات متفاوتة استُفيدت من السياق وهذا بعض الموجود:

قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «اذهب فخذْ جارية»[19] أي: أنثى.

وقال (عليه الصلاة والسلام): «أفلا جاريةً»[20] أي: بكرا.

وقيل: «فأبصرتْ جاريةٌ لنا»[21] أي: خادمة.

وقيل: «وترك جواريَ صغارا»[22].

وقالت عائشة (رضي الله عنها): «وكنتُ جارية حديثة السنّ»[23].

وقال (صلى الله عليه وسلم): «ورأيتُ قصرا بفنائه جارية»[24] أي: شابة.

من الشعر القديم[25]:

✓ قال المرَقَّش الأكبر[26]: (ت نحو 75 ق هـ) [الطويل]

وتصبحُ كالدَّوداة ناطَ زمامَها... إلى شُعَبٍ فيها الجواريْ العوانسُ

أي: الجارية التي أتى عليها وقت التزويج ولم تتزوج كذا قال الشارح.

✓ وقال عنترة بن شدّاد[27]: (ت نحو 22 ق هـ) [الكامل]

فبعثتُ جاريتي فقلت لها: اذهبي... فتحسّسي أخبارها ليَ واعلمي

أي: الخادمة كما يظهره السياق وجاء في شرح ديوانه ما يوحي به أيضا[28].

✓ وقال المَرَّارُ بن مُنْقِذ[29]: (ت نحو 100 هـ) [الوافر]

كأنَّ فروعَها في كل ريح... جوارٍ بالذوائب يَنْتَصِينَا

أي: الشابة كذا شرحها الشارح.

3-1- **المحصول:**

اشتق لفظ "الجارية" من الفعل "جرى" وصفا للفتيات الصغيرات؛ لأنهن يجرين في خدمة أهليهن أو لغلب الجري عليهن في اللعب وغيره وقد نصّ ابن سيدة على أن "الجارية" أول أسنان النساء[30]. ثم استغنوا عن الموصوف وأقاموا الوصف مقامه فصار يحيل على دلالة الموصوف المهمل من غير قرينة وربما لم يستعملوا التركيب البتة وإنما استعملوا الوصف وحده لقيام سياق الكلام معيّنا للموصوف وهذا أقرب. ويبدو أن صيرورة الوصف اسما للفتاة الصغيرة منعهم عن إطلاقه على غيرها إلا قليلا ولكنه ما منعهم من أن يتوسّعوا في دلالتها فقد عبّروا بها عن البكر والمملوكة والخادمة والشابة البالغة حتى قيل في العجوز: جارية فأصلها الشابة لِخِفَّتها ثم توسَّعوا حتى سمَّوا كلّ أمة جارية وإن كانت عجوزا لا تقدر على السعي تسميةً بما كانت عليه[31]. وقد جاءت في بيت المرقش الأكبر -وهو شاعر

قديم- بدلالة الشابة البالغة في سن الزواج مما يدل على أن هذه اللفظة إنما عرفت هذه التحولات في الزمن البعيد ثم نزل القرآن "بالجارية" و"الجواري" و"الجاريات" مرادا بها السفينة والعين والريح وغيرها وفي سياق أغلبها ما يدل عليها ثم غدت دالة بنفسها على بعض هذه المسميات؛ ولذلك عدّها اللغوي كُراع النمل مشتركا لفظيا[32].

2- **تطوُّر دلالة "الحَجّ":**

قال ابن فارس: «(حج) الحاء والجيم أصول أربعة فالأول القَصْدُ وكل قصد حجّ قال:

وأشهدَ ُ من عوفٍ حلولا كثيرة... يحجّون سِبَّ الزِّبْرِقان المُزَعْفَرا

ثم أُختصّ بهذا الاسم القصد إلى البيت الحرام للنسك»[33].

2-1- **تفسير القول:**

ذكر ابن فارس لهذه المادة أربعة أصول أولها القصد وخصَّه بالتقديم لوضوح قياسه وكثرة فروعه كما يظهره تمام الكلام وليست دلالة "القصد" ههنا ما يفهم منه اليوم؛ وهو مغزى الكلام ومرماه بل دلالته: «إتيان شيء وأَمّه»[34]. أي الذهاب إليه بتعمُّدٍ وتجرُّد.

والشاهد الذي ساقه ابن فارس بلا نسبة نسب شطره الثاني في معجمه "مجمل اللغة" إلى الشاعر المخضرم المخبَّل السعدي. وكمثل قوله في "المقاييس" قال في "المجمل": «الحج القصد وكل قصد حج (...) ثم اختصّ بهذا الاسم القصد إلى بيت الله الحرام للنّسُك»[35]. وقال ابن السكيت (ت244هـ) في شرح ذاك البيت: «يقول: يُكثرون الاختلاف إليه»[36].

وتفسير ابن فارس "الحجّ" بالقصد لا يلزم منه أنهما سواء؛ لأنهم يفسرون اللفظ بالمثيل وبالقريب والفرق بينهما جلّاه أبو هلال العسكري (ت بعد 395هـ) إذ قال: «الفرق بين "القصد" و"الحجّ" أن الحج هو القصد على استقامة ومن ثمَّ سُمّي قصد البيت حجًّا؛ لأن من يقصد زيارة البيت لا يعدل عنه إلى غيره»[37].

وفي كلام ابن فارس الأول تصريح بتطور دلالة "الحج" بالتضييق من القصد مطلقا إلى قصد بيت الله الحرام للنسك واستعمل لبيان العموم صيغة "كل" التي قال فيها الزركشي (ت794هـ): «ومعناها التأكيد لمعنى العموم؛ ولهذا قال القاضي عبد الوهاب: ليس بعدها في كلام العرب كلمة أعمّ منها (...) وهي تشمل العاقل وغيره والمذكر والمؤنث والمفرد والمثنى والمجموع؛ فلذلك كانت أقوى صيغ العموم»[38]. وبيّن ابن فارس تخصيصهم إياه بقوله: (ثم اخْتُصّ) وهو قول مبين. وعبارة هذا التطور الدلالي الرياضية هي هذه:

- ✓ الدلالة القديمة: الحج = القصد
- ✓ الدلالة الجديدة: الحج = قصد + البيت العتيق + للنسك

فدلالة "الحج" ضاقت بما زِيد فيها من قيود وهو ما ذكره ابن فارس صراحا في قوله: «ونُقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت وشرائع شُرعت وشرائط شرطت (...) وكذلك الحجُّ لم يكن عندهم فيه غير القصد (...) ثم زادت الشريعة ما زادته من شرائط الحج وشعائره»[39]. يريد بالدلالة الجديدة ما أقرّه الإسلام وإلا فإن قصد البيت الحرام للنسك عرفته العرب في جاهليتها.

ودلالة "الحج" الجديدة اصطلاحية شرعية وابن فارس لم يحفل بالدلالات الاصطلاحية في معجمه "مقاييس اللغة" إلا قليلا؛ لأن المرام الدلالات اللغوية وإنما ذَكَرَ ما ذَكَرَ منها حين حَسُنَ ذِكْرُه. ومن أمثاله "الفقه" و"الجزم" قال ابن فارس في الأول: «وكل علم بشيء فهو فقه (...) ثم اختُصّ بذلك علم الشريعة»[40] وقال في الثاني: «(جزم) الجيم والزاء والميم أصل واحد؛ وهو القطع يقال جزمت الشيء أجزِمه جَزْما. والجزم في الإعراب يسمى جزما لأنه قطع عنه الإعراب»[41].

ويبدو أن ترك ابن فارس ذكر الاختصاص في "الجزم" راجع إلى أن دلالته اللغوية لم تزل حينئذ مستعملة مشهورة خلافا "للحج" و"الفقه" فهناك فرق بين هذين وبين "الجزم" وهو أنهما من الألفاظ التي جاءت بها الشريعة و"الجزم" لا. ولا جرم أن للألفاظ

الإسلامية في نفوس المسلمين وألسنتهم من الغلبة ما ليس لألفاظ العلوم الحادثة وهو ما لوّح إليه ابن فارس عند حديثه عن "الأسباب الإسلامية" بقوله: «فعفّى الآخرُ الأوّلَ»[42].

واللغويون في دلالة "الحج" القديمة والجديدة مختلفون فمنهم مطلق ومنهم مقيّد فأما الخليل فقال: «والحج: كثرة القصد إلى من يُعَظَّم»[43] فقيّدها بقيدين وأما ابن دريد فأطلق[44].

وحكى الأزهري عن أبي العباس (أي: ثعلب[45](ت291هـ)) أن الحج: القصد وحكى عنه أيضا عن أبي عبيدة (ت209هـ) قولَه في شرح البيت المذكور سابقا: «أي يقصدونه»[46]. وهذا إطلاق. ونقل عن غيره أن "الحجَّ" الإتيان مرة بعد مرة «فقيل: حُجَّ البيت؛ لأن الناس يأتونه كل سنة»[47]. وفي هذا تقييد "للحج" بالتردد.

والجوهري قال: «الحج: القصد ورجل محجوج أي مقصود وقد حجّ بنو فلان فلانا إذا أطالوا الاختلاف إليه (...) هذا الأصل ثم تُعورف استعماله في القصد إلى مكة للنسك»[48]. فالجوهري من المقيّدين؛ لأنه أطلقَ وقيّدَ والمُطلَق يُحمل على المقيّد إذا كان الحكم واحدا[49]. والأزهري كذلك؛ لأنه حكى القولين ولم يرجّح وما ابن السكيت في كلامه المتقدِّم منهما ببعيد.

وفي كلام الجوهري تصريح بتطور دلالة "الحج" بالضيق استعمل فيه لفظة "الأصل" ليدل به على الدلالة القديمة واستعمل "ثم" ليدل به على بطء هذا التطور. ونقل الأزهري عن الليث دلالتين "للحج" جديدتين إحداهما: القصد والسير إلى البيت خاصة وعليها اقتصر الجوهري. والأخرى: قضاء نسك سنة واحدة[50].

وجمع بينهما ابن سيدة فقال: «الحجّ: القصد والتوجّه إلى البيت بالأعمال المشروعة فرضا وسُنّة وحقيقته الزيارة»[51]. يريد أن دلالة "الحج" القديمة هي الزيارة ثم تطورت إلى ما جاء به الإسلام ونرى أن الزيارة أعمّ من القصد؛ لأنها أصيلة في الميل إلى الشيء[52]

وتستعمل في القصد إليه على استقامة أيضا. وربما أشار بها ابن سيدة إلى التردد؛ لدلالتها على غير الثواء؛ لأن «الزائر منصرف لا مقيم»[53].

وكان الزمخشري من الذين أطلقوا دلالة "الحج" حيث قال: «وفلان تحجه الرفاق أي تقصده»[54]. وربما كان في اختياره الجمع (الرفاق) وإتيانه بالفعل مضارعا إشارةٌ إلى كثرة القصد واستمراره. وكابْن سيدة قال الراغب الأصفهاني (ت502هـ): «أصل الحج القصد للزيارة (...) خُصَّ في تعارف الشرع بقصد بيت الله تعالى؛ إقامةً للنسك»[55]. وهذا قول بتطور دلالة "الحجّ" صريح.

ومِثل الجوهري قال نشوان الحميري: «الحج: القصد يقال: حجّ القوم فلانا: إذا أطالوا الاختلاف إليه (...) ومن ذلك: حَجُّ البيت»[56]. وبِقول نشوان: (من ذلك) أومأ إلى تطور دلالة "الحج".

وقال الشريف الجرجاني (ت816هـ): «الحجُّ: القصد إلى الشيء المعظَّم وفي الشرع: قصدٌ لبيت الله تعالى بصفة مخصوصة في وقت مخصوص بشرائط مخصوصة»[57]. ولم نجد من قيّد دلالة "الحج" القديمة بكون المقصود معظّما -تصريحا- سوى الخليل والشريف.

وقوله: (وفي الشرع) إشارة إلى تطور دلالته في الشرع وهو مثل قول ابن فارس: (والجزم في الإعراب). وأما تخصص الدلالة فمستفاد من كلامه التالي وحتى لو لم يصرّح به فإنه معلوم مذكور قال ستيفن أولمان: «إن الاتجاه في مثل هذه الحالات يميل نحو التضييق في معنى الكلمة حين تنتقل من الاستعمال العام إلى المجالات المتخصصة»[58].

وعلى طريق الأزهري والجوهري سار الفيروز آبادي (ت817هـ) في قوله: «الحج: القصد (...) وكثرة الاختلاف والتردد وقصد مكة للنسك»[59]. فجعل "للحج" ثلاث دلالات يستعمل فيها جميعا ولم يبيّن الدلالة القديمة إلا أن تكون المقدَّمة. ونقل السيوطي (ت911هـ) كلام ابن فارس في باب "الأسباب الإسلامية" الذي في جملته ذِكر "الحج" نحوًا مما سبق[60] كما ضرب "الحج" مثلا على العام المخصوص من كلام ابن دريد أيضا[61].

وقال الفيوميُّ: «حجَّ حجًّا من باب قتل: قَصَدَ فهو حاجٌّ هذا أصله ثم قُصِر استعمالُه في الشّرع على قصد الكعبة للحجّ أو العمرة»[62]. وهذا كلام جليٌّ فقد أطلق الفيومي دلالة "الحج" ثم بيّن أنها القديمة بقوله: (هذا أصله) وبيّن أنها ضاقت بعد حين بقوله: (ثم قُصِر) وقال في حقيقتها الشرعية كقول السابقين.

وقال الزبيدي (ت1205هـ): «الحجّ: القصد مطلقا (...) وقال جماعة: إنه القصد لمُعَظّم. وقيل: هو كثرة القصد لمعظّم وهذا عن الخليل (...) والحجّ كثرة الاختلاف والتردد (...) وقال بعضُ الفقهاء: الحجّ: القصد وأطلق على المناسك لأنّها تبعٌ لقصد مكة»[63].

فابتدأ الزبيدي بالأشهر ثم نسب إلى جماعة تقييد "الحج" بكون المقصود معظّما وهو ما لم نجد مصرحا به سوى الخليل والجرجاني وزاد الخليل قيدا عليه كثرة الاختلاف إليه وجعل الزبيدي قصد المعظّم وكثرة قصد المعظّم مذهبين مختلفين وهذا صحيح إلا أن يكون القول بذاك هو قولا بهذا؛ لأن كل معظّم مقصود بكثرة.

وأجمل نجم الدين النَّسَفيُّ (ت537هـ) ما سبق في قوله: «الحجّ (...) وهو القصد وهو من باب دَخَلَ. وقيل: هو الزيارة. وقيل: هو إطالة الاختلاف إلى الشيء. وقيل: هو العَود إلى الشيء مرة بعد مرة»[64].

2-2- **الشواهد:**

نسوق هنا ما تيسّر الظفر به من الشواهد الشعرية الوارد فيها "الحج" أو ما تفرّع عنه؛ للوقوف على مدى موافقتها لأقوال اللغويين السابقة في دلالته القديمة ودلالته الجديدة وفي تطورها من هذه إلى هذه[65].

✓ قال عَوْفُ بن الأَحْوَص[66]: (جاهليّ كان أيام حرب الفجار) [الوافر]

وإنّي والذي حجَّتْ قريشٌ... محارمَه وما جمعتْ حِراءُ

استعمل "الحج" في قصد البيت العتيق خصوصا وهو معظّم عند العرب؛ لذلك أضافه لله.

✓ وقال أعشى قيس[67]: (ت 7 هـ) [الطويل]

لعمْرُ الذي حجَّتْ قريشٌ قطينَه... لقد كِدْتَهم كيد امرئ غيرِ مُسْنِدِ

أي: وإني لأقسم بالذي تحج إليه قريش كذا شُرح[68] والأصوب أنه أقسم برب الكعبة أو برب سدنتها وفي إضافتها أو إضافتهم إليه تعظيم لها.

✓ وقال[69]:[المتقارب]

فإن كنتَ مِن وُدِّها يائسا... وأجمعتَ منها بحجٍّ قَلوصا

حجَّ فلانا: قصدَه كذا شَرْحُه.

✓ وقال المخبّل السعدي[70]: (مخضرم عُمِّر طويلا) [الطويل]

يحجّون سِبّ الزبْرِقان المزعفَرا

استشهد ابن فارس بهذا الشطر -وتمامه في "مقاييس اللغة" و"إصلاح المنطق"- على أن "الحج" هو القصد مطلقا واستشهد به ابن السكيت –كما مضى- على أنه كثرة الاختلاف وهذا أقرب؛ لأن في ورود الفعل المضارع جَمْعًا إشارةً إلى كثرة قصد القاصدين واستمراره. وزيادةً على ذلك يُلمَح في نسبة الحج إلى العمامة -وهي عنوان السيادة والرياسة- والمراد لابسها أن المقصود معظّم مبجّل جليل القدر قال ابن دريد: «والسِّبّ: العِمامة والزِّبْرِقان هو ابن بدر البَهْدَلي من بني سعد وكان سادات العرب يصبغون عمائمهم بالزعفران»[71].

وقال نجم الدين النَّسَفيّ في شرح البيت: «يقول: إنما طال عمري لأقع في هذه الغَصَّة وهي أن يصير مثل هذا الرجل سيّدا يزوره كثير من النّاس مرّةً بعد مرّة»[72]. فالحج هنا وإن لم يُستعمل في بيت الله الحرام فإنه مستعمل في معظّم مقصود بكثرة. ونظيره قول الشاعر: [البسيط]

كانت تحُجُّ بنو سعد عمامتَه... إذا أهَلّوا على أنصابهم رَجَبا

فقد استشهد الخليل به على أن "الحج" كثرة القصد إلى من يعظَّم[73].

3-2- المحصول:

بيتان من الخمسة المذكورة ورد فيهما "الحج" بدلالة قصد بيت الله الحرام المعظّم وبيتان ورد فيهما بدلالة كثرة قصد السيد المعظّم وبيت جاء "الحج" فيه بدلالة القصد مطلقا. وإن كانت هذه العيّنة لا تفيد اليقين لضيقها فربما أفادت ذلك مع قول حازم علي كمال الدين: إن دلالة الفعل "حجَّ" في العبرية هي: عيَّد للرب وفي السريانية: احتفل بعيد دينيّ[74]. وقولِ المؤرخ جواد علي: «وكلمة "حجَّ" من الكلمات الساميَّة الأصيلة العتيقة وقد وردت في كتابات مختلف الشعوب المنسوبة إلى بني سام. كما وردت في مواضع من أسفار التوراة وهي تعني: قصد مكان مقدس وزيارتَه»[75].

وقال أيضا: «وفي رُوع الشعوب السامية القديمة وغيرها أن الأرباب لها بيوت تستقر فيها قيل لها في الأزمنة القديمة: "بيوت الآلهة"؛ ولذلك يرى المتعبِّدُون والمتقون شدّ الرحال إليها؛ للتبرك بها وللتقرب إليها وذلك في أوقات تحدد وتثبت وفي أيام تعيّن تكون أياما حرما لكونها أياما دينية ينصرف فيها الإنسان إلى آلهته»[76]. فهذا يصحّح مذهب المقيّدين "للحج" بكثرة القصد وعظمة المقصود عند القاصدين ويدلّ على ثبات دلالة "الحج" في الجاهلية والإسلام.

خاتمة:

ترجَّحَ من المقال قول ابن فارس والذين على رأيه أنَّ دلالة "الجارية" قد تطورت من كل ما تتَّصِف بهذا الوصف إلى الفتاة الشابَّة. وقد بدا أن غلبة شهرته فيها على شهرته في سواها من الشمس والسفينة والعين وغيرها؛ يعود لمنزلة الشابَّة عند العرب إذ تعلو على منازل تلك الأشياء. كما أنبأ المقال عن أنَّ دلالة "الحج" لم تتطوَّر من القصد مطلقا إلى

قصد بيت الله الحرام فهذه هي دلالته في القديم وفي الحديث وإن اختلفت المناسك وكل استعمال له في غير ذلك فإنما هو توسُّع لم يشتهر.

الهوامـــش و المراجـــع

(1) ابن فارس (أبو الحسين أحمد،ت395هـ)، معجم مقاييس اللغة،تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط2، 1979، 448/1.

(2) ينظر: ابن فارس (أبو الحسين أحمد،ت395هـ)، مجمل اللغة،دراسة وتحقيق: زهير عبد المحسن سلطان، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط2، 1986، (جرو)، 185/1.

(3) ينظر: نفسه، 75/1.

(4) ينظر: الخليل بن أحمد (الفراهيدي، ت170هـ)، كتاب العين مرتّبا على حروف المعجم،ترتيب وتحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان،ط1، 2003، (جري)، 236/1.

(5) ينظر: الأزهري (أبو منصور محمد بن أحمد،ت370هـ)، تهذيب اللغة،تحقيق: أحمد عبد العليم البردوني، ومراجعة: علي محمد البجاوي،الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، (جري)، 174/11.

(6) نشوان الحميري (ابن سعيد بن سعد،ت573هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الإرياني ويوسف محمد بن عبد الله، دار الفكر المعاصر ودار الفكر، بيروت،لبنان/ دمشق،سورية،ط1، 1999، (جَرَى)، 1065/2.

(7) ينظر: الزمخشري (جار الله محمود بن عمر،ت538هـ)، أساس البلاغة،تحقيق: محمد باسل عيون السود،دار الكتب العلمية،بيروت، لبنان، ط1، 1998، (جري)، 136/1،135.

(8) ينظر: الفيوميُّ (أحمد بن محمد بنعلي،ت770هـ)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي،تحقيق: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، ط2،(جَرَى)، 98/1،97.

(9) ينظر: حازم علي كمال الدين، معجم مفردات المشترك الساميّ في اللغة العربية،مكتبة الآداب، القاهرة،ط1، 2008، ص123.

(10) مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط،مكتبة الشروق الدولية،القاهرة،مصر،ط4، 2004، (جَرَى)، ص119.

(11) ينظر مثلا: (خس) 151/2، (درع) 268/2، (عمي) 135/4.

(12) ابن سيدة (أبو الحسن علي بن إسماعيل،ت458هـ)، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة،تحقيق: محمد علي النجار،معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية،ط1، 1973، (جري)، 352/7،351.

(13) الجوهري (إسماعيل بن حماد،ت393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية،تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار،دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1990، (جعر)، 614/2.

(14) ينظر: ابن سيدة، المحكم والمحيط الأعظم في اللغة، (رقط) 165/6، (عشث) 217/1، (فجع) 205/1، (حجب) 65/3، (حقن) 10/3، (أخر) 145/5.

(15) ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، (جري)، 136/1.

(16) ينظر: الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، (جَرَى)، 98/1.

(17) ينظر: ستيفن أولمان (Stephen Ullmann)، دور الكلمة في اللغة، ترجمة وتقديم وتعليق: كمال بشر،دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع،القاهرة،ط12، 1997، ص180.

(18) نفسه، ص201.

(19) البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل،ت256هـ)، صحيح البخاري،اعتناء وتخريج الأحاديث: أبو عبد الرحمان عادل بن سعد، دار الرشيد،الجزائر، 2007، 93/1.

(20) نفسه، 446/1.

(21) نفسه، 488/1.

(22) نفسه، 511/1.

(23) نفسه، 571/1.

(24) نفسه، 205/2.

(25) ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،ط15، 2002، 95/5، 91/5، 55/3.

(26) المفضّل الضبي (ابن محمد بن يَعلى،ت178هـ)، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون،دار المعارف،القاهرة، ط6،ص226.

(27) أبو زيد القرشي (محمد بن أبي الخطاب)، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق وضبط وزيادة شرح: علي محمد البجاوي،نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص368.

(28) ينظر: عنترة بن شداد (ابن عمرو بن معاوية العبسي، ت نحو 22 ق هـ)، شرح ديوان عنترة للخطيب التبريزي (ت502هـ)، تقديم ووضع الهوامش والفهارس: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص180.

(29) المفضّل الضبّي، المفضليات، ص73.

(30) ينظر: ابن سيدة (أبو الحسن علي بن إسماعيل،ت458هـ)، المخصص، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، ط1، 1898، 46/1.

(31) ينظر: الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، (جَرَى)، 98/1.

(32) ينظر: كراع (أبو الحسن علي بن الحسن الهُنائي، ت310هـ)، المُنَجَّد في اللغة، تحقيق: أحمد مختار عمر وضاحي عبد الباقي، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1988، ص59.

(33) معجم مقاييس اللغة، 29/2.

(34) نفسه، (قصد)، 95/5.

(35) (حج)، 221/1.

(36) ابن السِّكّيت (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق،ت244هـ)، إصلاح المنطق، شرح وتحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون،دار المعارف،مصر،ص372.

(37) أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن سهل، ت بعد 395هـ)، الفروق اللغوية، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، ص126.

(38) الزركشي (بدر الدين محمد بن بهادر،ت794هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه،تحرير: عمر سليمان الأشقر، ومراجعة: عبد الستار أبو غرة ومحمد سليمان الأشقر، دار الصفوة، القاهرة، مصر،ط2،1992، ج3، ص64.

(39) ابن فارس (أبو الحسين أحمد،ت395هـ)، الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، تعليق ووضع الحواشي: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،ط1، 1997، ص46،44.

(40) مقاييس اللغة، (فقه)، 442/4.

(41) مقاييس اللغة، 454/1.

(42) الصاحبيّ في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، ص44.

(43) كتاب العين مرتّبا على حروف المعجم، (حجج)، 286/1.

(44) ينظر: ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن،ت321هـ)، كتاب جمهرة اللغة،تحقيق وتقديم: رمزي منير بعلبكي،دار العلم للملايين،بيروت،لبنان،ط1، 1987، (حجج)، 86/1.

(45) ينظر: تهذيب اللغة، 26/1.

(46) نفسه، (حج)، 388/3.

(47) نفسه.

(48) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (حجج)، 303/1.

(49) ينظر: محمد بن صالح العثيمين، شرح الأصول من علم الأصول، اعتناء وتعليق: نشأت بن كمال المصري، دار البَصيرة، الإسكندرية، مصر، ص329.

(50) ينظر: تهذيب اللغة، (حج)، 387/3.

(51) المخصص، 91/13.

(52) ينظر: ابن فارس، مقاييس اللغة، (زور)، 36/3.

(53) أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف بن علي، ت745هـ)، تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، وشارك في التحقيق: زكريا عبد المجيد النوتي وأحمد النجولي الجمل، وتقريظ: عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1993، 505/8.

(54) أساس البلاغة، (حجج)، 169/1.

(55) الراغب الأصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد،ت502هـ)، المفردات في غريب القرآن، تحقيق وإعداد: مركز الدراسات والبحوث بمكتبة نزار مصطفى الباز، مكتبة نزار مصطفى الباز، (حج)،141/1.

(56) شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، (حَجَّ)، 1282/3.

(57) الشريف الجرجاني (علي بن محمد الحسيني، ت816هـ)، كتاب التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985، ص85،86.

(58) دور الكلمة في اللغة،ص182.

(59) الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب،ت817هـ)، القاموس المحيط،تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة،بيروت،لبنان،ط8، 2005،(الحَجُّ)، ص183.

(60) ينظر: السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر،ت911هـ)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها،شرح وضبط وتصحيح وعنونة الموضوعات وتعليق الحواشي: محمد أحمد جاد المولى بك ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط3،1/295.

(61) ينظر: نفسه، 1/427.

(62) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، (حَجَّ)، 1/121.

(63) الزَّبِيدِيّ (أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحُسيني،ت1205هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: إبراهيم الترزي، ومراجعة: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت،الكويت، 1972، (حجج)، 5/461،460،459.

(64) النَّسَفي (نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد، ت537هـ)، طِلْبَة الطَّلَبَة في الاصطلاحات الفقهية، ضبط وتعليق وتخريج: خالد عبد الرحمان العك، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص108.

(65) ينظر: خير الدين الزركلي، الأعلام، 5/94، 7/341، 2/175، 3/15.

(66) المفضّل الضبّي، المفضليات، ص174.

(67) الأعشى (ميمون بن قيس بن جندل، ت7هـ)، ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس، تحقيق وشرح: محمد حسين، الإسكندرية، 1950، ص191.

(68) نفسه، ص190.

(69) نفسه، ص207.

(70) ابن فارس، مجمل اللغة، (حج)، 1/221.

(71) كتاب جمهرة اللغة، 3/1257.

(72) طِلبة الطلبة في الاصطلاحات الفقهية، ص108.

(73) ينظر: كتاب العين مرتَّبا على حروف المعجم، (حجج)، 286/1.

(74) ينظر: معجم مفردات المشترك السامي للغة العربية، ص136.

(75) جواد عليّ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ساعدت جامعة بغداد على نشره،ط2، 993، 347/6.

(76) نفسه.